Enlightenment collection's
ISSN 2716-7852
V:12, N°:2, (2022), P.P :113-131

سلسلة الأنوار
ISSN 2716-7852
المجلد:12، العدد:2، (2022)، ص.ص: 113- 131

من صِدَام الحضَارات إلى تَعَارُف الثَّقَافَات، نَحوَ إمكَانَات التَّعايُش المشتَرَك

From the Clash of Civilizations to interaction of Cultures, Towards the Potential of Coexisting

أمين طالبي

جامعة محمد لمين دباغين، سطيف 2 (الجزائر)، am.talbi@univ-setif2.dz

تاريخ الاستلام : 2022/07/25 ؛ تاريخ القبول : 2022/09/23 ؛ تاريخ النشر : 2022/11/10

الملخص

تروم هذه الورَقَة البَحثيَّة إلى مُحاولَة النَّظَر في إمكانيَّة توطين مُرتَكَزَات التَّعايُش المُشتَرَك وقَبُول الآخَر على ضَوء التَّنوع الثَّقافي، وذلكَ عبر الانتِقَال من فِكرَة الصِّدَام والصِّرَاع، إلى قِيَم التَّعَارُف والتَّحَاوُر بين الثَّقَافَات، باعتبارها آليَّة لتَكريس قِيم التَّعايُش. ذلكَ أنَّ الإنسان بات –بهذا القَدر أو ذاك– يعيش أشكالاً من التَّعصُّب؛ وألوانا من السَّيطرَة والكَراهيَّة. لهذا، أصبَح لِزَامًا علينا –وقبل فَوات الأوان– الانتقال من فكرة الصِّدام والتَّعصُّب؛ إلى تفعيل أُنمُوذَج التَّعارُف، أملاً في خَلقِ قيَمًا إنسانيَّة يَكُون فيها التُّراث الإنساني تُراثًا كونيًّا يساهم في خلق التَّعدد الحضاري. و من ثَمَّ، توطين أنموذَج التَّعارُف بما يتواءَم وثقافَة التَّعايُش.

الكلمات المفتاحية: صِّدام الحضارات، السَّيطَرَة، الثَّقافة، تعارُف الثَّقافات، التَّعايُش.

Abstract

This research paper discusses the possibility of setting the foundation of coexistence and that's by moving from the idea of clash and conflict and intercultural interaction since it's a mechanism to establish the values of coexistence. The human being became to live many kinds of intolerance, violence, that's why it became necessary for us to move from the idea of clash and intolerance to the activation of the paradigm of cultural diversity and exchange, hoping to create common humanitarian values in which the human heritage is a universal one that contributes in creating diversity and civilizational openness.

Keywords: clash of civilizations, control, culture, cultural exchange, coexistence.

1.مقدمة:

ليس ثمَّة خلافٌ أنَّ الإنسان المُعاصِر بات يَعيش – بهذا القَدَر أو ذَاك– حُروبًا وصِراعات بمختلفِ الأنواعِ، كالصِّراع الاديولوجي، الصِّراع الثَّقافي، والصِّدام الحَضاري، على سبيلِ المثال لا الحَصر، هذه الصِّدَامات أنتجت، فيما بعد، عِدَّة أزمَات نفسيَّة واجتماعيَّة، جَعَلَت الإنسان – من حيث هو كائن اجتماعي– يعيشُ، رُغمًا عنه، ضِمنَ أنمُوذَج الصِّدام والصِّراع بألوانه المختلفَة. ولعلَّ هذا الأنمُوذج، كما يدَّعي البعض، ليس سوى امتدادا لتلك الصِّراعات والصِّدَامَات التي تُلطِّخ تاريخ الأمم والشُّعُوب، كصراع المُلُوك والأباطرة، تناطُح الحضارات.

لهذا، كان ولا زال الصِّدام مُسيطر على واقع الشُّعوب والحضارات في القرن الحادي والعشرين؛ غير أنَّ هذا الصّدام اتخذ أشكالا مختلفة عن سابقيه، فقد ظهر بألوانٍ أخرى كالعُنف، والسَّيطرة، وصِدام الهُويات، ما جعل الكثير يتنبأ بمستقبلٍ قائم على الصِّدام الحضاري والصراع الثقافي. وقد طرح عالم السياسة الأمريكي صمويل هنتنجتون نظرية يرى من خلالها أنَّ صدام الحضارات سيكون أنمُوذجًا يؤطِّر مستقبل السياسة العالمية غُداة الحرب الباردة، والمقصود بالصدام الحضاري، أنَّ حضارات العالم، بما فيها الحضارة الغربيَّة والإسلامية خاصَّة، سيكون مصيرهما الصدام، تكون فيه الثَّقافة أداةً وجوهرًا يغذِّي هذا الصِّدام.

لكن، بالمقابل، نجد الإسلام / الدِّين من حيث هو رؤية إلى العالم، يمتلك تصوّرًا حول العلاقَة التي تحتكم إليها الحضارات والثَّقافات، هذا التَّصوُّر الإسلامي يستند إلى خطاب إلهي ديني قُرآني يُنظِّم السّلوك وموجّه للنَّاس كافَّة يحثُّهم على ضرورة تفعيل أنموذج التَّعارُف باعتباره رؤية تُؤسِّس للحوار والتَّعارُف الدّيني والحضاري، ومن ثمَّ، الحدّ من النزاعات والصراعات التي تنشأ بين الشّعوب والأمم.

وعليه، يمكن للإنسان أن يطمع للعيش في واقعٍ يسوده السِّلم والأمن، في تعايُش إنساني تشترك فيه كل الشُّعوب والدِّيانات باختلاف ألوانها وثقافاتها. وبالتَّالي، في هذا الموضوع المعرفي، سنحاول أن نطرح رؤية إسلاميَّة قائمة على التَّعارُف الحضاري والثَّقافي، في مقابل ما يطرحه الغرب من رؤى قائمة على الصِّدام والتَّدافُع، وسنحاول أن نبرر في نهاية المطاف، كيف أنَّ الإسلام /الدِّين عبر نصوصٍ قرآنيَّة، يجعل من التَّعارُف الثَّقافي والحوار الحضاري والدِّيني أفُقًا ورؤية إلى العالم تحدّ –أو على الأقل– تُقلِّل من حدّة الصراع والصّدام.

سنتخّذ من الجرأة بما يكفي لنجعل من أطروحة تعارُف الثَّقافات في مقابل نظريَّة صدام الحضارات لصاحبها صمويل هنتنجتون، ونحاول أن نبرِّر كيف يكون تعارُف الثَّقافات سبيلاً لتحقيق التَّعايُش الإنساني المُشترك بين ثقافات وحضارات العالم، ومن ثمَّ، ضرورة الحَد –وقبل فوات الأوان– من كل ما يُمكن أن يُعكِّر استقرار الإنسانيَّة. وفي هذا الموضوع المعرفي الإنساني قد لا يكفي أن نتساءَل؛ يقدر ما ينبغي أن نجرؤ على مُساءَلة التَّساؤُل نفسه، عن مدى مشروعيَّة، و، من ثمَّ، إمكانيَّة توطين فكرة التَّعايُش والتَّعارُف بين الثَّقافات،

فإلى أي مَدَى يُمكن توطين سُبُل التَّعارُف والتَّفاعُل الثَّقافي في ظلِّ نزوح الثَّقافات والحضارات نحو الصدام السيطرة؟ وبأي معنى يكون تعارُف الثَّقافات بديلاً لصدام الحضارات، وسبيلاً لتكريس التَّعايُش المشترك؟ وهل يكمن فعلاً تحقيق التَّعارُف الثَّقافي أم هو مجرّد يوتوبيا يطمح إليها العقل البشري؟

لمحاولة الإجابة عن هذه التَّساؤُلات، ارتأينا لطرح مجموعة من المحاور والتي رأينا فيهَا أهميّة في معالجة الموضُوع استشكَالا واستِدلالا، واعتمدنا في ذلك على المنهج التَّاريخي للبحث عَن أصل المفاهيم ودلالتها التّاريخية، تَجَنُّبا لِسوء التَّأويل؛ والمنهج التّحليلي للتَّعرف على ما تحتويه الأفكار، فضلا عن محاولة تبسيطها؛ مع الاستعانة بمناهج أخرى كالمنهج النّقدي والمُقارن وذلك لما تطلبته الدِّراسة البحثية.

2. الحضارة والثَّقافة، الصدام والتَّعارُف مقاربات مفاهمية

من المعلُومِ أنَّ البَحث في المواضيع الفِكريَّة والفلسفيَّة والتي لها أثر على الإنسان، عادَة ما تتعرَّض لسوءِ الفَهم والتَّأويل، كموضوع الحضارة، والثَّقافَة، والهوية، والإديولوجيا، على سبيلِ المثال لا الحَصر، تَجعُل الباحث فيها مُلزَمٌ بوضع الإطار المفاهيمي لهذه المواضيع، التي يمكن أن يساهم سوء فهمها في تعميق الصِّدام وتوسيع أفق الصِّراع. لهذا، الوقوف على سيرة المصطلح ودلالة المفاهيم، قبل الشُّروع في تحليلها، قد يُساعد على فكِّ الكثير من التّساؤُلات التي تَعتري الموضوع. ومن ثَمَّ تناولها استشكالاً واستدلالاً. (محمد، 2012، صفحة 6)

والأبعد من ذلك، فالوعي بقيمة المفاهيم، يُحيلنا إلى معرفة مَكمن الانحرافات اللغوية، ومعرفة منافذ التَّغيير في التَّركيب الفكري. بيْدَ أنَّ تحليل المفاهيم هو بمثابة المدخل لتفكيكِ الحقل المعرفي، على نحوٍ يسمح بمعرفة مختلف التَّداخلات المعرفيَّة التي يُمكن أن تطرأ على بنية المفاهيم. (عارف، 1994، صفحة 7)

1.2 الحضارة والثَّقافة، بحث في المصطلح ودلالة المفهوم:

كلمة حَضارة "Civilisation" هي لفظ يرجع للأصلِ اللَّاتيني "Civites" ومعناه مدينَة، والأصل "Civis" يحمل معنى السَّاكن في المدينة؛ أو "Civilis" بمعنى مَدَني، أو ما يتعلَّق بساكن المدينَة؛ وورِدَ أيضًا، الأصل "Citizen" الذي يُعرف به المواطن الروماني المتعالي عن البَربري. (عارف، 1994، صفحة 33) ظهر هذا اللَّفظ في القرن الثَّامن عشر مع المركيز دي ميرابُو (1749-1791) D. Mirabeau وعُمومًا نجد الفكر الغربي يُطابق بين مفهومي الحضارة والثَّقافة، تطابُقًا يصل لحدِّ التَّرادُف! كما ذهب إلى ذلك المؤرخ الفرنسي، فرناند بروديل[1] (1902-1985) Fernand Broudel والذي اعتبر أنَّ الثَّقافة والحضارة تُشيرانِ مَعًا إلى المعنى نفسه، وهو الطّابع الكُلِّي للحياة لدَى شعب من الشّعوب، لأنهما يشتركان في القِيم وطُرق التَّفكير. والحضارة عنده هي فضاء يرتبط واقعها بموقعها الجغرافي، ذلك أنَّ كل حضارة تصدر وتتلَّقى التأثيرات الثَّقافية، ناهيك عن اعتبار الحضارة مجرّد ذهنيات جماعيّة. (محمد، 2012، صفحة 9)

والأبعد من ذلك، فهذا التَّداخل بين مفهومي الحضارة "Civilisation" والثّقافة "Culture" قد استمر حتى القرن التَّاسع عشر، إلى أن رسم الألمان حُدودًا عامَّة للفصل بين الحضارة بمقوّماتها الماديَّة والتّقنيّة؛ والثَّقافة بتجلّياتها القَيميَّة والفكريّة واللّغويَّة والدِّينية. لهذا، نجد أزفالد شبنجلر (1880-1936) Oswald Spengler على سبيل المثال لا الحصر، يستعمل كلمة حَضارة للدَّلالة على الانحطاط، متأثِّرًا بالدَّورات الحضارية في تفسير التَّاريخ. (محمد، 2012، صفحة 10)

أمَّا عن دلالة المصطلح في اللغة العربيّة، ففي أوائل القرن التَّاسع عشر ظهر اتجاهين في ترجمة هذا اللَّفظ، ولكلٍ منهما مُبرر. اتّجاه ترجم كلمة "Civilisation" بـ "مدينة"، وذلك منذ بداية الاتِّصال بالغرب في مطلع القرن التَّاسع عشر، واستُعمِل لفظ التَّمَدُّن للتَّعبيرِ عن مضمون اللفظ الغربي؛ (محمد، 2012، صفحة 42) واتِّجاه آخر ترجم اللفظ الأجنبي "Civilisation" بـ "حضارة" وذلك في منتصف القرن العشرين، واستند هذا الاتِّجاه إلى التَّقدّم المادِّي والمعارف، والفنون الحديثة التي عرفتها أوروبا، خاصَّة وأنَّ الحضر في اللّغة هو خلاف البَدو؛ والحاضر خِلاف البَادي، أي المقيم في البادية. لهذا، يُقال عادةً، فلانٌ من أهل الحاضرة؛ وفلانٌ من أهل البادية، أو فلانٌ حضري؛ وفلانٌ بَدَوي. وبهذا المعنى، فالحضارة هي الإقامة في الحضر. (ابن منظور، 1303هـ، صفحة 272)

من خلالِ الاتِّجاهين في ترجمة اللَّفظ الأجنبي "Civilisation" يظهر جليًّا أنَّ الاتّجاه الثَّاني أقرب وأدَّق، ذلك أنَّ الدَّلالة الاصطلاحيَّة للفظ "حضارة" هو مجموع الظَّواهر الاجتماعيَّة المركّبة ذات طبيعَة قابلَة للتَّناقُل، تتم عبر سِمة أخلاقيَّة، وجماليَّة، وفنيَّة مشتركة بين كل الأفراد، (لالاند، 2001، صفحة 172) أو لنقُل –إن صَحَّ التَّعبير– أنَّ الحضارة هي ذاك الكَمّ المركَّب، من ظاهرة التَّقدم العلمي والتَّقني، والرُّقي الفنِّي والأدبي، والازدهار المادّي، الذي ينتقل من جيلٍ إلى جيل في مجتمعٍ واحد، أو في مجتمعاتٍ مشابهة. (بليليطة، 2018، صفحة 85)

أمَّا لفظ الثقافة "Culture" فيرجع إلى الأصل اللاَّتيني "Cultuvare" والذي يحمل معنى حَرث الأرض وزراعتها، وظل هذا اللفظ بهذا المعنى في العصرين اليوناني والروماني القديم، وقد استعملها شيشرون (106 ق.م – 43 ق.م) Ciceron بالمعنى نفسه أي حرث الأرض وزراعتها، واعتبر أيضًا، أنَّ الفلسفة زراعة للعقل وتنميته "Montis Culture" ظَنًّا منه أنَّ دور الفلسفة هو تنشئة النَّاس على تكريم الآلهة. و، من ثمَّ، قامت فرنسا بإطلاقِ طقوس دينيَّة تحت اسم "Culture"؛ (عارف، 1994، الصفحات 19–20) أمَّا في عصر النَّهضة احتوى هذا اللّفظ على المدلول الفنِّي والأدبي، يتناول مواضيعًا كالتَّربية والإبداع؛ غير أنَّ في القرن العشرين فقد أصبح لفظ "Culture" يدل على تنمية العقل عن طريق الذَّوق والفهم. ونجد توماس هوبز (1588–1676) Tomas Hobbes استعمل لفظ "ثقافة" للدَّلالة على العمل الذي يبذله الإنسان لغايات تطويريَّة. (معن، 1986، صفحة 312)

ومع انتقال المصطلح إلى اللّغة الألمانية "Kultur" اكتسب مضمونا جديدا، إذ أصبح يدل على التَّقدّم الفكري والتَّطور الذي يسعى إليه الفرد، كما تسعى إليه الإنسانية بشكلٍ عامّ، لهذا، ارتأى الألمان في مطلع القرن العشرين إلى القول بوجود علاقة بين الثَّقافة والحياة الروحيَّة، معبِّرين بذلك على وجود قيم متجسِّدة تساهم في إنتاج الثَّقافة، وهنا، يستوقفنا ما ذهب إليه جون ديوي (1952–1859) John Dewey حيث عرَّف الثَّقافة بأنّها حصيلة التَّفاعل بين الإنسان وبيئته. (معن، 1986، صفحة 312)

يظهر جليًّا أنَّ مصطلح الثَّقافة عبر تاريخه الطويل عرف الكثير من الدَّلالات، ولعلَّ التَّعريف الأكثر دقَّة لهذا اللَّفظ هو ما طرحه عالم الأنثربولوجيا الإنجليزي إدوارد تايلور (1832–1917) Edward Taylor والذي اعتبر الثقافة أنها « ذلك الكل الذي يشمل المعارف والمعتقدات، والفنون، والقوانين، والأعراف الثَّقافية، من حيث هي كيان متميّز لجماعة من النَّاس.» (محمد، 2012، صفحة 20) أو قُل، أنَّ الثَّقافة هي « ذلك الكلّ المُركَّب الواسع الذي يشمل المعارف والعقائد، والفنون،

والأخلاق [...] التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع.» (عارف، 1994، صفحة 20) هذا التَّعريف الإثنُوغرافي[2] (Ethnography / Ethnographie) أصبح يستعمل بكثرة، خاصَّة لدى علماء الاجتماع.

أمَّا تجليَّات المصطلح في الثَّقافة العربيَّة نجد مالك بن نبي، يرى أن الثّقافة لا يصح اعتبارها شيء؛ فهي علاقة متبادلة، وهي العلاقة التي تحدّد السّلوك الاجتماعي لدى الفرد، بأسلوب الحياة في المجتمع؛ كما تحدّد أسلوب الحياة بسلوك الفرد. (ابن نبي، 1984، صفحة 43)

2.2 الصدام والتَّعارُف، حفر في المفاهيم:

من الواضح أنَّ الحفر والتَّقصِّي في سيرة المفاهيم ودلالة المصطلحات، يُسهل تحصيل وتحليل المعارف والعُلُوم التي تَصوغ المنظومة الفكرية والمعرفيَّة. ذلك أنَّ المفاهيم من حيث هي مُنطلقات لصياغة الأفكار وتوضيحها؛ تُساعد أيضًا، على خَلق أواصِر التَّواصُل الفكري والمعرفي، ومن المؤسف أن يستعمل البعض مفهوم الصِّراع، للدَّلالة على مفهوم الصِّدام في حديثهم عن فكرة و/أو أطروحة صدام الحضَارات.[3]

والصِّدام في اللغة، صدَم الشّيء صدمًا بمعنى ضربه ودَفَعَه؛ ويُقال صَدَم الرجل غيره أي دَفَعَه؛ وَصَدَم القول أي أسكته؛ وتصادَمت الآراء بمعنى تضَارَبَت. (راهي قيس، 2017، صفحة 20) أمَّا لفظ الصّدام في الموسوعات السِّياسية، يحمل مدلولاً اجتماعيًّا لأنّه ينطلق من التَّضارُب في القِيَم والمصالح. ويُشير لفظ الصِّدام –في الغالب– إلى حالة مُتبادَلَة بين أمرين اجتماعهما ممكن، ولعلَّ هذا ما يُميِّز الصِّدام عن الصّراع الذي لا يُمكن أن يجتمع فيه أمرين! ناهيك عن إمكانيَّة السّيطرة على الصِّدام واستحالة ذلك على الصِّراع، (راهي قيس، 2017، صفحة 21) بيْدَ أنَّ هذا الأخير يُشير –غالبًا– إلى نزاع بين طرفين يُحاول كلّ منهما أن يتغلَّب على الطّرف الآخر مُستعملاً في ذلك القوة الماديَّة. (صليبا، 1994، صفحة 36)

ولهذا، فقولنا صِّدام الحضارات أقرب تعبيرا لعبارة The Clash of Civilizations العنوان الذي طرحه صمويل هنتنجتون (1927–2008) Samuel Huntington في مقاله، قبل أن يتحوَّل العنوان إلى كتاب طارحًا جَدَلاً واسعًا في الأوساط الفكرية والإعلاميّة.[4]

أمَّا لفظ التَّعارُف، فهو –على الأغلب– ذا خلفيَّة إسلامية؛ ذلك أنَّ المسلمون لهم رؤية في البناء الحضاري، وقد تكوَّنت لديهم معرفة بخصُوصِ علاقة المسلم بالمسلم، وعلاقته بغيره من الشّعوب الغير مسلمة، وذلك عبر نصوصٍ قُرآنيّة واضحة. ونجد أنَّ لفظ التَّعارُف قد ذُكر في قوله تعالى ﷻ في مُحكم تنزيله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

لِتَعَارَفُوا﴾ (القرآن الكريم، الحجرات، 13) ومن خلال هذه الآية يتبيَّن حقيقة أنَّ الإسلام يمتلك رؤية اتجاه العلاقات بين الأمم والشُّعُوب والمجتمعات والحضارات، والمفهوم الذي يوضِّح هذه الرؤية و/أو التَّصوُّر الإسلامي هو "التَّعارُف"، ومن المعلوم أنَّ هذا المفهوم يستند إلى أصلٍ قرآني موجَّه للنَّاس كافَّة، ويتَّضح ذلك من خلالِ صيغَة الجمع التي تبتدئ بها الآية "يَا أَيُّهَا النَّاسُ..."؛ وباعتبار الخطاب القرآني موجَّه للنَّاس أجمعين، فهو يحاول –بهذا القدر أو ذاك– تذكيرهم بالتَّعدّد والاختلاف بين الشُّعُوب والقبائل؛ فضلاً عن التَّذكير بوحدة الأصل الإنساني "الذَّكر والأنثى" لهذا، فرغم الاختلاف والتَّعدّد، تبقى العلاقة بين البشر قائمَةً على فكرة الحوار ومنطق التعارُف. (الميلاد، 2014، الصفحات 82–83)

3. صدام الحضارات، النَّظرية ونماذجها النَّقديَّة

من المعلُوم أنَّ قراءَة مُستقبل العالم، واستشراف صورة البشرية مُستقبلاً كان، ولا يزال، هاجسًا يؤرِّق الإنسان. ولأجلِ ذلك طُرحَت عدَّة مُحاولات ونظريّات فكرية تحاول البحث عن تفسير لتلك التَّحدِّيات التي تواجه البشرية، وتحُول دونَ استقرار الإنسانيَّة، ولعلَّ من أبرز ما طُرحَ في ظلِّ هذا الموضوع نجد فكرة / نظريّة "صدام الحضارات" التي طرحها العديد من المفكّرين[5]، رغم أنَّها تُنسبُ عادةً صمويل هنتنجتون، إذ طرحها كمحاولة جادَّة لاستشراف حالة السّياسة العالمية بعد الحرب الباردة.

1.3 صدام الحضارات، النَّظريَّة والمرتكزات الفلسفية:

لا يخفى أنَّ نظرية صدام الحضارات باتت –بهذا القدر أو ذاك– أطروحة تحاول تفسير واقع التَّاريخ الحضاري والإنساني واستشراف السياسة العالميَّة، وهي بحق من بين النَّظريات التي نالت اهتمامًا كبيرًا وخلَّفت جدَلاً واسعًا وسط الكُتَّاب والمُثقَّفين، ولا تختلف عن ذلك أطروحة نهاية التَّاريخ لـ فرانسيس فوكوياما (1952) F. Fukuyama وكثيرا ما كان الصِّدام بين النّموذجين في تفسيرهما للواقع.[6]

لهذا، سعى هنتنجتون إلى انتقاد أطروحة نهاية التاريخ لفوكوياما، واصفًا إياها بالفكرة الأحاديَّة والبعيدة عن الحقيقة في تفسير الواقع السياسي والحضاري العالمي بعد الحرب الباردة. ومن الضروري التَّنبيه هنا، أنَّ هنتنجتون في دحض أطروحة فوكوياما استعمل ما يُعف بالأنمُوذج[7] Paradigme الذي هُرِّب أسَاسًا من فلسفة العلوم! وحسب هنتنجتون أنَّ التَّفكير في واقع العالم ينبغي أن يستند إلى خارطة مُبسّطة، أو نظرية عامَّة كالأنموذج، والأبعد من ذلك، فهنتنجتون

يستثمر فكرة الأنموذج التي تقوم أساسا على إزاحة نظريات عامّة غير قادرة على تفسير حقائق جديدة، ومن ثمَّ، استبدالها بنظرية جديدة تقدّم تفسيرًا لتلك الحقائق بشكلٍ مقنع. (راهي قيس، 2017، صفحة 62)

وعليه، يمكن القول أنَّ استثمار نظرية الأنموذج كانت محاولة لإقصاء –أو بالأحرى– إزاحة النَّماذج والنَّظريات التَّفسيريَّة التي عجزت عن تفسير ووصف الواقع السياسي والحضاري، ومن ثمَّ، طرح أنموذج بديل لتفسير واقع السياسة العالمية. ومن بين النَّظريات التي حاول هنتنجتون إقصاءها هي نظرية نهاية التَّاريخ لفوكوياما، واستبدالها بأطروحة/ نظرية صدام الحضارات، والتي يرى فيها الأنسب لتفسير الواقع.

من الضروري الإشارة هنا، أنَّ فكرة صدام الحضارات قد نُشِرت لأوَّل مرة في مجلة الشُّؤون الخارجيَّة في 1993؛ قبل أن تتحوَّل –فيما بعد– إلى كتاب يحمل العنوان ذاته، صدام الحضارات في 1996، عرض فيه هنتنجتون معالم نظريته المتمثّلة أساسًا في وجود صدامٍ وتناطُح بين الحضارات، ورغم أنَّ الطَّرح كان يحمل درجة من الغرابة لدرجة أنَّه أحدَث جدلاً واسعًا في الأوساط الفكريَّة والإعلاميَّة.[8] وعُموما، ففكرة الصدام –حسب هنتنجتون– ليست سوى انقسام بين البشر مصدره الثّقافة بمفهومها الأوسع، وليس الصدام حالة استثنائية، إنَّما هو امتداد لتلك الصّراعات التي عرفتها الإنسانية على مرّ التَّاريخ، كصراع الملوك والأباطرة، وتناطح الإديولوجيات. لكن، الصراع الذي سيطفو غُداة الحرب الباردة سيكون عبارة عن صدام بين الحضارات. (هنتنجتون، 1999، صفحة 10) ويؤكّد هنتنجتون، أنَّ مصدر التَّصادُم هو الثَّقافة، كأحدث مرحلة لتطوّر النّزاعات في العالم الحديث، وتلك الثّورات التي كانت تؤطِّر الحضارة الغربيّة ستتحوَّل بعد الحرب الباردة إلى صدام حضاري بين حضارات مختلفة ومتنوعة. (راهي قيس، 2017، صفحة 46)

مما سبق، يتَّضح أن الصّدام الحضاري هو العنوان الأبرز لوصف واقع الشُّعوب والأمم، ولعلّ الماضي السّحيق من تاريخ البشريّة يثبت، بما لا يدع مجالاً للشّك، أنّ الصراعات كان العنوان الأبرز لعلاقات الشعوب والأمم.

تقوم أطروحة صدام الحضارات، على فكرة عامَّة، هي أنَّ الصِّدام سيكون بين سبع حضارات وهي: الحضارة الغربيَّة، والحضارة الصِّينيَّة، والحضارة اليابانيَّة، والحضارة الإسلاميَّة، والحضارة الهِندوسيَّة، والأرثودوكسيَّة، والحضارة الأمريكية اللاتينية، والحضارة الإفريقية. أمَّا أسباب هذا الصِّدام، فهي، على العُموم، تعمُّق في الوعي الحضاري وتزايد فجوى الاختلاف بين الحضارات، هذا ما سيخلق –فيما بعد– نوعًا من العدَاء؛ ناهيكَ عن تزايد التَّفاعُلات بين الشُّعُوب التي تنتمي إلى

حضارات مختلفة؛ فضلاً عن عمليات التَّغيير الاجتماعي التي تُعمِّق من أزمة الهُويَّة لتنتج ثغرات ومزيدًا من الأزمات. (هنتنجتون، 1999، الصفحات 117–118)

ورغم اشتراك هذا الصِّدام بين كل تلك الحضارات، تبقى الحَلقَة الأكثر عُرضة للصِّدام – حسب هنتنجتون– هي الحضارة الإسلاميَّة والغربيَّة، لما لهذه الأخيرة من تأثيرات مُدمِّرة على كلّ الحضارات الأخرى. ولعلَّ المشكلة الأساسيَّة بين الغرب وباقي الحضارات تكمن في ذاك التَّنافُر والتَّدافُع الذي يجعل من الغرب "حضارة عالميَّة" [9] تنصهر فيها شُعوب العالم، والأبعد من ذلك، أنَّ الغرب –وأيضًا أمريكا– يسيران وفق رؤية مفادها أنَّ الشُّعوب الغير غربيَّة لابدَّ لها أن تلتزم بالقيم الغربيّة خاصّة فيما يتعلَّق بالديمقراطية وحقوق الإنسان والفردانيَّة،[10] وحكم القانون. (هنتنجتون، 1999، صفحة 294)

يظهر جليًا مدى تصاعُد وتيرة الصِّراع بين الغرب وباقي الحضارات، خاصَّة الحضارة الإسلاميَّة، ذلك أنَّ العداء بين الحضارتين تاريخي ومتشَّعِب، ناهيك عن السَّلطَة التي يفرضها الغرب اليوم على باقي حضارات العالم باعتباره حضارة عالميَّة.

من هنا، يُحاول الغرب أن يَحافظ على التَّفوُّق والدِّفاع عن مصالحة كحضارة عالميَّة تنتج مجتمعًا عالميًّا مُتطوِّرًا على مختلف الأصعدة، والأكثر من ذلك، أصبح مصطلح العالميَّة هو التَّسميَّة المُهذَّبة للغرب لإضفاء شرعيّة كونيَّة على مصالح الدّول الغير غربيّة. ويكمن جوهر الحضارة الغربيَّة –حسب هنتنجتون– في التّراث الكلاسيكي مُتمثِّلاً في العقلانيَّة الإغريقية والتَّشريع اليوناني، والكاثوليكيّة والبروتستانتية واللغات الأوروبية؛ ناهيك عن الفصل بين الكنيسة وسلطة الدَّولة وسيادة القانون، (سنغاس، 2008، صفحة 135)

تمثِّل هذه المعالم المرتكزات الأساسية لحضارة الغرب، ويبدو حقيقة أنَّ هذه العوامل التي ساهمت –بهذا القدر أو ذاك– في قيام حضارة الغرب، تختلف عن العوامل المُشكِّلة لباقي الحضارات، هذا ما يجعل من الغرب في حلبة صراع مع الإسلام من جهة، ومع الصين من جهة أخرى، ويؤكِّد هنتنجتون ذلك بقوله « إنَّ دعاوي العالمية والإنسانية التي يطرحها الغرب، تضعه بشكل مُتزايد في صراع مع الحضارات الأخرى وبشكل أكثر خطورة بين الإسلام والصِّين.» (راهي قيس، 2017، صفحة 43)

يُمكن لقارئ هذه الأسطر، أن يتساءَل عن السَّبب الذي يجعل الصِّدام يحتدم بين حضارتي الغربي والإسلام وحضارة الصّين، والسّب في هو أنَّ الحضارات الأسيوية تقوم بتوسيع قواها الاقتصاديّة والعسكرية والسّياسية؛ في حين أن باقي الحضارات باقية على حالها، هذا بالتَّحديد ما

يجعل علاقة الغرب والصين متوتّرة وعدائية. علاوة على ذلك، فحضارتي الإسلام والصّين تمتلكان تراثًا ثقافيًّا فيه من العظمة ما يجعلهما مختلفتين عن تراث الغرب. (هنتنجتون، 1999، صفحة 295) أما صدام الغرب والإسلام فسببه راجع إلى أصالة هذا الصراع في محطَّاته التَّاريخية، منذ ظهور الإسلام، مرورا بالحملات الصَّليبيَّة على العالم الإسلامي ، ووصولاً إلى الاستعمار الأوروبي على أجزاء العالم الإسلامي. (خليفة، 2003، صفحة 19)

2.3 النماذج النَّقديَّة لنظرية صدام الحضارات:

طُرحت فكرَة صدام الحضارات، كأطروحة لفهم واستشرافِ واقع السِّياسة العالمِية، فخلقت جدلا واسعًا في الأوساط الفكرِية الغربِية والإسلامية، بين مُؤيدٍ ومعارض لَهَا، ورغم أنَّها تتسم بأفكارٍ قد تكونُ إلى حدٍّ معيَّن منطقية، كجعلِ الصِّدام امتداد لصراعات أثبتهَا التَّاريخ، لكِن، لا يَخفَى علينا أنَّ الأطرُوحة احتَوَت عَلى نَوعٍ منَ الغُموض فكانَت عُرضةً لِسهامِ النَّقد والتَّعقيب، بل طرحت عدّة أفكار تهدف للردِّ على نظرية صدام الحضارات. [11]

ومن المعلوم أنَّ هنتنجتون، طرحَ صدام الحضارات باعتبارها فرضيّة يحاول البرهنة على صحتّها. غير أنَّ هذه النَّظريَّة القائلة بوجود صدام بين الحضارات، لطالما تعرضَّت للكثير من الانتقادات من طرف العرب والغرب أنفسهم، فقد عبَّر المفكر العربي، محمد عابد الجابري[12] (1935–2015) عن صدام الحضارات بأنَّها ليست بفرضية، إنَّما هي تنبؤات تُقدَّم بشكل هجومي وتتدافع كالقذائف ويغيب عنها التَّنظيم المنهجي، وكأنَّ المؤلِّف كان مُستعجلاً. ذلك أنَّ الأفكار كانت تتداخل والشَّواهد تتدافع والتَّحليل مُضطرب تمامًا. (الجابري، 1997، الصفحات 92–94) أمَّا عن تصنيف هنتنجتون للحضارات فقد اتَّسم –حسب الجابري– بالغمُوض دون الالتزام بمعيارٍ محدَّد للتَّصنيف، فنلاحظ أنَّه صنَّف الحضارة الغربية نسبة إلى الجغرافيا؛ والحضارتين اليابانية والصِّينية نسبة إلى بلد؛ والحضارة الإسلاميَّة نسبة إلى دين؛ أمّا تصنيف للحضارتين الأمريكية والإفريقية نسبة إلى العرق. (الجابري، 1997، صفحة 103)

يظهر حقيقة الخلط العشوائي في تصنيف الحضارات في نظرية صدام الحضارات، والأدهى والأمر أنَّ هنتنجتون لا يستعمل الدِّين لتصنيف الحضارات إلاَّ بالنّسبة للحضارة الإسلاميَّة، بل وينتهي للقول أنَّ الصدام سيشتَّد بين الغرب والإسلام. ويصف عبد الوهاب المسيري[13] (1938–2007) هذه الثُّنائية بالزَّائفة والواهيَّة، فهي تنطلق من إديولوجيَّة مقيتة تجعل العالم مُنقسم لقسمين، الغرب من جهة؛ وباقي العالم من جهة أخرى. لذا، فهذه النَّظريَّة تُعلي من شأن الغرب على حساب

باقي الحضارات وهذا الطَّرح يتناقض من أطروحته حول تعدّدية الحضارات وصراعها. (المسيري، 2013، صفحة 182)

من السَّهل لقارئ نظرية الصّدام، أن يكشف الغُموض وضُعف الاستدلالات فهو تارة يستند للماضي من تاريخ البشرية؛ وتارة أخرى يستدّل بواقع العلاقات الدّوليَّة.

ولعلَّ أكثر الأفكار غُموضًا في نظرية هنتنجتون، هو القول بأنَّ الصِّدام مستقبلاً سيكون بين الحضارة الغربيَّة والصِّينية "الكونفوشيوسية" والإسلاميَّة، دون أن يعلِّل سبب هذه الصِّدام، بل قد نجرؤ على التَّساؤل كيف توصَّل إلى التَّنظير بين عالم إسلامي وآخر أسيوي رغم الاختلافات الجذريَّة بينهما. (المسيري و التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، 2012، صفحة 248) هذا ما جعل المفكّر إدوارد سعيد (1935–2003) يصف أطروحة الصّدام بالجهل والانطلاق من رؤية عرقيَّة للعلاقة بين الذَّات الغربيَّة والآخر من الشُّوب المختلفة، (الغول، 2019، صفحة 8) خاصَّة الإسلام،فقد احتوت النَّظريَّة على زرع صورة مُشوّهة عن الإسلام كدين وكحضارة يتعاطاها الإعلام.[14] (المسيري و التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، 2012، صفحة 249)

4. تعارُف الثَّقافات، نحو رؤية إسلاميَّة للتَّعايُش المشترك

من المعلوم أنَّ الإسلام من حيث هو دين ينظم سلوك الأفراد والمجتمعات؛ يؤسس أيضًا، لنوع من العلاقات الاجتماعية والإنسانيَّة بين الشُّعوب المختلفة، فنجد أنَّ الإسلام / الدِّين قد اعتنى عنايةً تامَّة بقضيَّة الحوار بمختلف أنواعه وأشكاله. فالمسلمون لهم تجربة في بناء الحضارات وتشيّيد الثقافات، أكسبتهم تجربتهم معرفة بخصوص علاقة الحضارات والشعوب بمختلف ثقافاتهم ولغاتهم، وذلك من خلال نصوص قرآنية تؤسّس لما يُعرف بفقه التَّعارُف الثقافي والحوار الحضاري. والجدير بالذّكر هنا، أنَّ فكرة تعارُف الثَّقافات تتقاطع مع أطروحة تعارف الحضارات وفكرة حوار الأديان.[15]

1.4 تعارف الثَّقافات الفكرة والتَّأسيس:

تُطرح عادة فكرة التَّعارُف الثَّقافي في مقابل فكرة الصِّدام الحضاري كأطروحة مُضادَّة ومُناقضة لها، ومن المعلوم أنَّ التَّعارُف في حقيقة الأمر فكرة ذات رؤية إسلاميَّة محضة، ويظهر ذلك جليًّا في النَّص القرآني. إذ يقول ﷻ في محكم تنزيله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (القرآن الكريم، الحجرات، الآية 13) هذه الآية الكريمة تبيّن، بما لا يدع مجالاً للشَّك، أنَّ الإسلام / الدِّين له رؤية خاصَّة في طابع العلاقات التي تحكم الحضارات كرؤية مخالفة للأنموذج الغربي القائل بالصِّدام والصِّراع الحضاري.

من هنا، يبغي القول أنَّ الرؤية الإسلامية تجعل من فكرة التَّعارُف أنموذجًا عامًّا يؤطِّر العلاقات بين الحضارات والثَّقافات، على أساس النَّص القرآني فقد جاء قوله ﷻ في كتابه العظيم ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ.﴾ (القرآن الكريم، الروم، الآية: 22) توضح هذه الآية أنَّ الإسلام يجعل من الاختلاف رؤية تحدّد شكل العلاقات مع الأمم والمجتمعات والحضارات. ولما كان القرآن الكريم هو الرسالة الخالدة لكل البشر بكل اختلافاتهم الدِّينية والعرقيَّة. هذا الاختلاف والتَّعدّد والتَّنوع البشري كما تؤكّده الآية الكريمة يفترض أن يتأسَّس على قاعدة قرآنيَّة، والمفهوم الذي يضبطه القرآن في ذلك هو "التَّعارُف" وآية التَّعارُف من الآيات الأكثر تكرارًا في القرآن الكريم، وفكرة تعارُف الثَّقافات في أهمّ جوانبها جاءت في إطار تجديد واجتهاد الفكر الإسلامي وضرورة الانفتاح الحضاري والثَّقافي مع الآخر. (المحمداوي، 2012، صفحة 112)

وعليه، فالتَّعارُف إذًا، يُمكن أن يكون بديلا للصِّدام بمختلف أنواعه وألوانه، الصِّدام الحضاري، الصدام الإديولوجي، الصِّراع الدِّيني. لهذا، يعتبر التَّعارُف الطَّرح الإسلامي الأصيل الذي يستند لركيزة قرآنيَّة دينيَّة. وهو بذلك ردّ لكل المطارحات التي لطالما وصفت الإسلام بالإرهاب، وإجابة صريحة لتلك النَّظرة التي لطالما حملها الغرب عن الإسلام والمسلمين. خاصَّة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، حيث عمَّق الحدث من الأزمة الحضارية والإنسانيَّة في العالم[16]، ما زاد الطَّعن في الإسلام والمسلمين. وهذا إن دلَّ على شيء، إنَّما يدل على الجهل المُضاعف بتعاليم الإسلام ومبادئه، وهي سياسة مقصودة تهدف إلى إشاعة الرعب من الإسلام في الغرب، و، من ثمَّ، تقديمه في صورة الدِّين المهدد للمسيحية واليهوديَّة، وفي صورة الحضارة المهدّدة للحضارة الغربيَّة. (خليفة، 2003، صفحة 71)

مما سبق، يظهر جليًّا مدى الجهل بتعاليم الإسلام في الغرب، ومن خلال عرض أنموذج صدام الحضارات كما طرحه هنتنجتون، وصُنف هذا الصِّدام بين الغرب والإسلام كمستقبل لعلاقة الحضارات، والذي سيكون –بامتياز– صدامًا وتدافُعًا ثقافيًّا. غير أنَّ هذا الطَّرح لا علاقة له بالإسلام في شيء، وهو في كثير من الأحوال ينمّ عن جهل بتعاليم الدِّين الذي يؤسس في حقيقة الأمر، لمنطق الحوار والتَّعارُف.

والأبعد من ذلك كله، أنَّ الإسلام / الدِّين من حيث هو رؤية إلى العالم،[17] قائمة على اعتبار النَّص القرآني قانونًا كونيًّا يؤسس لمنهج ينظّم السُّلوك والعلاقات الإنسانيَّة والحضاريَّة. فقد جاء في محكم تنزيله ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا

آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (القرآن الكريم، المائدة، الآية 48) فمن خلال الآية يتَّضح مَدى اعتناء الإسلام بالطابع السلوكي والإنساني والحضاري، كدرجة من درجات التَّعارُف والتَّعايُش.

بل إنَّ الإسلام أيضًا، قد دعى إلى الحوار كآليَّة إنسانيَّة وحضاريَّة تؤسّس لثقافة التَّعارُف من خلال قوله ﷻ ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.﴾ (القرآن الكريم، النَّحل، الآية 125) فهذه الآية القرآنيَّة تدلّ بما لا يدع مجالاً للشكّ، أنَّ الإسلام ليس كما يُنظَر له بأعين الغرب والاستشراق الذي يحاول وصف الإسلام كدين القوة والهيمنة –مثلما عبَّر عن ذاك هنتنجتون– وهي استمراريّة للرؤية الاستشراقية التي لطالما قدَّمت الإسلام في صورة همجيَّة تهدف إلى زرع الرّعب والخوف والإرهاب. (خليفة، 2003، صفحة 72)

ولن أكون مُبالغًا حينما أجعل الرؤية الإسلاميَّة في التَّأسيس للحوار، والتعارف الثقافي تتقارب وتتقاطع كثيرا مع نظرية حوار الحضارات للمفكر الفرنسي روجي غارودي[18] (1914–2012) Roger Garaudy هذه الأطروحة، الفريدة من نوعها،[19] والتي عادةً ما تُصنَّف كفكرة مُضادَّة لنظرية صدام الحضارات. تهدف لتأسيس الحضارات على أفق الحوار والتَّعايُش وهذا ما تحاول الرؤية الإسلاميَّة تكريسه من خلال التَّعارُف.

2.4 التَّعارُف الثَّقافي إمكانٌ للتَّعايُش الإنساني:

بعد توضيح أنَّ لفظ التَّعارُف رؤية إسلاميَّة مخالفة للتَّصور الغربي المبني أساسًا على الصِّدام والصِّراع، يُمكن القول إذًا أنَّ التَّعارُف مشروع إسلامي يؤسّس للتَّعايُش الإنساني والحضاري والدِّيني، بعيدًا عن كل الصِّراعات الضَّيِّقَة الصدامات الحضاريَّة والإديولوجيَّة.

ولم يبقى للشُّعوب في الحدِّ من ثقافة الإقصاء والصدام والعدَاء سوى تبنّي، ومن ثمَّ، إرساء قيَمِ التَّسامُح والتَّعايُش الثقافي والدِّيني، واجتثاث جذور التَّوتُّر والتَّعصُّب، بمختلف أشكاله وألوانه. ولا شكَّ أنَّ هذا الأفُق صعب المنال يستدعي تضافر الخطاب الإعلاميّ والثَّقافي والدِّيني والسِّياسي والتَّربوِي، ويستدعي ذلك تعاوُن الفرد والقانون والدّول، إنَّه إجراء يستهدف البنية الفكريَّة والعَقَديَّة للمجتمع، ومن ثمَّ، إعادة صياغَة العقل والأولويات والوعي وتقديم فهمٍ عصري للدِّين ونقد المفاهيم والسلوك القائم على الصدام والنِّزاع ورسم مستقبل جديد للعالم عبر قراءَة متفهِّمة للتاريخ والدِّين. قراءَةً مُتجاوزة من منطق العنف إلى منطق التَّسامح والتَّعارُف الثقافي. (الغرباوي، 2008، صفحة 15)

وعليه، فالحديث عن تعارف الثَّقافات يفترض الإيمان الرَّاسخ بأنَّ الهويَّات الثَّقافيَّة مُنفتحة ومتفاعلَة مع محيطها ومع الثَّقافات الأخرى. لهذا، فالقول بوجود ثقافة صلبة مُكتفيَّة بذاتها أمر ليس

مقبولاً اليوم، بل إنَّ الصدامات والاختلافات موجودة داخل الثقافة الواحدة، وتزايد حدّة هذا الصراع يُنتِج الانغلاق والعزل الثَّقافي ومن ثمَّ، عجز الثقافة عن التَّفاعل والتّعارُف. هذا ما سيؤدِّي –في نهاية المطاف– إلى التَّصادم والتَّدافُع واندلاع الحروب والنِّزاعات. (محمد، 2012، صفحة 13)

من خلال ما سبق، يُمكن القول أنَّ الإسلام يخالف الرؤية الغربية القائلة بالصدام ويحاول استبدالها بأنموذج التَّعارُف والتَّحاوُر الثَّقافي الذي يؤسّس لمنطق التَّعايُش الإنساني. وهذه المواقف المبدئيَّة التي طرحها الإسلام تجعل منه في اتّصال وحوار دائم مع الحضارات والأديان والثَّقافات الأخرى. (خليفة، 2003، صفحة 87) وهو بذلك أنموذج للحوار الدِّيني والثَّقافي، وإيمان بالتَّعدّدية الثَّقافية والدّينية. ولهذا، فالتَّعايُش الحضاري الإنساني بين الحضارة الغربيَّة والإسلامية خصوصًا، ممكن في ظلِّ الرؤية الإسلامية القائمة على التَّعارُف والحوار. (خليفة، 2003، صفحة 88)

ونلتمس في النَّص القرآني آيات تعبّر بوضوحٍ عن التَّنوع الإنساني، كحقيقة اجتماعيَّة وقانون تاريخي. فالحضارات هي في الحقيقة شعوبا وقبائل مختلفة دينيًّا وإديولوجيًّا وثقافيًّا. ينبغي أن تقوم على منطق التَّعارُف تأسيسًا للتَّعايُش. بَيْدَ أنَّ الخطاب القرآني، من خلالِ آيات موجَّهة للنَّاس كافَّة، يُذكِّر بوحدة الأصل الإنساني وإقرار بالتَّنوُّع البشري، ذلك أنَّ تنوُّع الشُّعُوب والقبائل وتكاثُرهم وتوزّعهم في بقاع الأرض لا يعني –بالضّرورة– عزلهم وانطواءهم الحضاري والثَّقافي، بل يمهّد ذلك للتَّعارُف والتآزُر والتَّحاوُر، بعيدًا عن كل أشكال التَّعصُّب والإقصاء. (الميلاد، 2014، الصفحات 83-84)

من خلال هذا الأنموذج الإسلامي في التَّعارُف الثَّقافي والحضاري، يُمكننا القول حقيقة أنَّ الثَّقافات –بما فيها الحضارات– لا يمكن إلاَّ أن تقوم على منطق التَّعارُف والحوار تكريسًا وتأسيسًا، من أجل الحَدِّ من تلك النِّزاعات والصراعات التي باتت – بهذا القدر أو ذاك– تؤرّق الإنسان من حيث كائن اجتماعي وحضاري وثقافي. ويُمثّل التَّعارُف –من حيث هو رؤية وأنموذج إسلامي– مصدرًا وقيمة يؤسّس للمفاهيم المجاورة له كـ "الحوار"، و"التَّسامُح"، و"التَّعاون" ويحدّد لها شكلها ودرجتها وصورها، ومن ثمَّ، يُحافظ على فاعليتها وتطورها واستمرارها، والأبعد من ذلك، أنَّ التَّعارُف يمكنه أن يزيل –أو على الأقل– أن يحدّ من مسببات النّزاع والصّدام.

5. خاتمة:

يُمكِن القَول فِي الأخِير أنَّ الإنسَان مِن حيثُ هو كائِن اجتماعِي بطبعِه، لا يُمكِنُه العيش بِمُعزلٍ عَن الغير فحَاجَة الإنسَان لأخيه الإنسَان ضَرورَة يَفرضُهَا الطابِع الاجتِماعِي، كَمَا يَفرضُهَا

الوَاقِع، وَلَمَّا كَانَ البَحث فِي علاقَة الإنسَان بِغيره هاجِسًا يَشغَل بالَ الباحِثين، كَمَا شَغَل بَالَ المُفَكّرِين والفَلاسِفَة عَلى مَرّ التَّاريخ، ظَهَرت عِدّة مُطارَحات وَنَظَرِيّات تُحاول النَّظَر والتَّقَصّي فِي نَوعِ هَذه العَلاقَة التِي تَجمع بين الحَضَارات الإنسَانِية. أهِي علاقَة صِراع وَتَصَادُم أم أنهَا علاقَة تعارف وتَعايُش؟ ويُمكِننا القول في حقيقَة الأمر أنَّ القائِل بفكرة الصِّدام والتَّناطُح قَد نَسي أو تَنَاسَى حاجَة الإنسَان لأخيه الإنسَان؛ فَضلاً عَن حاجَة الحَضَارَات لِحَضَارَات أخرى، ذَلِك أنَّ تارِيخ الفِكر البَشري يَشهَد بأنَّ الحَضَارَات لَم تَتَشَكّل مِن العَدَم، إنَّمَا قِيامهَا كَان بِفعل التّأثُّر بِحَضَارَات أخَرى مُختلفَة عَنهَا تَمَامًا كَمَا سَاهَمَت الحَضَارَات الشَّرقِية القَدِيمَة فِي قِيام حَضَارة اليُونَان؛ نَاهِيكَ عَن مُسَاهَمة هَذه الأخِيرَة فِي بلورَة مَعَالِم الحَضَارَة الغَربِية.

إضَافَة إلَى ذلِك فالإنسَان اليوم بِحاجَة أكثر من أيّ وقت مَضَى، للعيش فِي السِّلم والأمن والاستقرار، خَاصّة مَع تَفَشّي موجَات الغَضَب وانتِشَار ثَقَافَة القُوة والهيمنة فِي عالم اليَوم، حيث استَفحَلَ فِيه العُنف والإرهَاب والجَرِيمَة وأشكَال مُختَلِفَة مِن التّعَصُّب، تَجعَل البَشَر بِمُختَلَف ألوانهم في أمسّ الحَاجَة إلَى تعارف قيمِي ودِينِي وأخلاقِي، كَمَشرُوع أمل لَطَالمَا سَعَى إليه الإنسَان مُحاوِلاً التَّخَلُّص مِن ثَقافَة القوة التِي هيمنت على حياته وواقعِه؛ ولِتحقِيقَ هذا المَطلَب الإنسَانِي والقيمِي، يَجب أن تتكَاتَف الجُهُود الدولية، وأن تتضَافَر جُهود أكبر عَدد ممكن مِن المُؤسسَات الفِكرية والاقتصادِية والدّينية، والتِي لَهَا السُلطَة فِي صُنع القَرارات عبر العالم، ناهِيكَ عَن تِلكَ المُنَظَّمَات الدّولية والعالمِية التِي لطالما تَغَنَّت بالسِّلم والأمن العالميين.

وَرَغمَ صُعُوبَة المُهِمّة فِي ظِلّ الظُروف الحالية التِي يمر بها العالم مِن تَوَتّر وصِراع وتناطح العقائِد، وَجَب عَلَى الإنسَان أن يُصارع مِن أجل تَكريس ثقافة التعارف والتَّعايُش الثَّقافِي والحَضَارِي الذِي كان أمل الفلاسِفَة عبر التاريخ، وكلنا أمل بأن تَتحَقَّق رُؤى روجيه غارودي، فِي قيام حوار حضَارِي؛ وأن تتأسّس أمانِي فولتير، في وُجود تَسَامُحٍ كونِي؛ وأن نُساهِم فِي ترجمة أحلام كانط، تحقيقا للسَّلام الدَّائِم. وقد يكون الأنموذج الإسلامي لتعارف الثَّقافات سبيلا لتحيق ما تطمح إليه الشّعوب والحضارات.

6. قائمة المراجع:

- القرآن الكريم

1. بليليطة عبد الحكيم، المعجم الفلسفي، معجم في الفلسفة والعلوم الإنسانية، كنوز الحكمة، الجزائر، 2018

2. الجابري محمد عابد، قضايا في الفكر العربي المعاصر، مركز الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1997
3. حسن محمد خليفة، المسلمون والحوار الحضاري مع الآخر، نقد إسلامي لنظرية صراع الحضارات، مركز الدراسات الشرقية، القاهرة، 2003
4. الحَنفي عبد المنعم، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1999
5. راهي قيس ناصر، صدام الحَضارات، دراسة نقدية في جينالوجيا المفهوم، المركز الإسلامي للدّراسات الإستراتيجية، ط1، 2017
6. رجاء حسين، حوار الحَضارات بين الواقع والطُّموح، دار السعودية، جدّة، ط1، 2007
7. زيادة معن، الموسوعة الفلسفية العربية، الاصطِلاح والمفاهيم، مَعهد الإنماء العربي، ط1، 1986
8. سعدي محمد، دَور الثَّقافة في بِنَاءِ حِوار بين الأمم، مركز ابن الإمارَات للدِّرَاسَات والبُحُوث الإستراتيجية، الإمارات، ط1، 2012
9. سنغاس ديتر، الصِّدَام دَاخل الحَضَارَات، التَّفَاهُم بِشَأنِ الصِّرَاعَات الثَّقَافِيَة، ترجمة: شوقي جلال، العين للنَّشر، مصر، ط1، 2008
10. صَليبَا جَمِيل، المُعجم الفلسفي، بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللَّاتينية، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، ط1، 1994
11. طرابيشي جورج، المعجم الفلسفي، الفلاسفة. المناطقة. المتكلمون. اللاهوتيون، دار الطَّليعة، بيروت، ط3، 2006
12. عارف محمد نصر، الحَضارَة الثَّقَافَة المدينة، دراسَة لِسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، دط، 1994
13. عبد الرحمن، طه. الحوار أفقا للفكر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط2، 2014
14. على عبود المحمداوي، خطاب الهويات الحضارية، من الصدام إلى التسامح، ابن النّديم للنشر والتَّوزيع، الجزائر، ط1، 2012.
15. الغول أسماء، عالم ليس لـ"إدوارد سعيد"!، مجلة الدّوحة، العدد 137، وزارة الثّقافة والرياضة، قطر، 2019
16. فتحي حسن ملكاوي، رؤية العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2021.

17. فوكوياما فرنسيس، الإسلام والحداثة والربيع العربي، ترجمة: حازم نهار، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2015
18. كون توماس، بنية الثورات العلمية، ترجمة: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، عدد 168، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1992
19. لالاند أندري، الموسوعة الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001
20. ليشته جون، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، ترجمة فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008
21. ماجد الغرباوي، التسامح ومنابع اللاتسامح فرص التعايش بين الأديان والثقافات، العارف للمطبوعات، لبنان، ط1، 2008.
22. المسيري عبد الوهاب، التريكي فتحي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الوعي، الجزائر، ط2، 2012
23. المسيري عبد الوهاب، العلمانية والحداثة والعولمة، دار الفكر، لبنان، دط، 2013
24. ابن مَنظور جمال الدّين محمد بن مكرم، لِسَان العَرَب، المَطبعة الميرية، مِصر، ط1، 1303هـ
25. الميلاد زكي، تعارُف الحَضَارات، رؤية جديدة لمستقبل العلاقات بين الحَضارات، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 2014
26. ابن نبي مالك، مشكلة الثَّقافة، ترجمة عبد الصَّبُور شاهين، دار الفِكر، سوريا، ط4، 1984
27. هنتنجتون صامويل، صدام الحضَارات، ترجمة: طلعت الشّايب، تقديم: صلاح قنصوه، نيويورك، ط2، 1999
28. ولد أباه السّيد، أعلام الفكر العربي المعاصر، الشبكة العربية للأبحاث، بيروت، ط1، 2010

7. ملاحق:

[1]– فرنسي الأصل، مؤسس الدَّورية التَّاريخية في نسخة ما بعد الحرب العالمية، اتَّجه نحو البعد المكاني في التَّاريخ، وأضاف بشكلٍ فعَّال، رؤية مفادها أنَّ التَّاريخ هو نتيجة للآثار البطيئة. (ليشته، 2008، صفحة 191)

[2]– هي البحث عن أحوال الشّعوب، ودراسة لأنماط حياتهم ومختلف المظاهر الماديّة لنشاطهم، كالتَّقاليد، والعادات، والأكل، والمشرب، وغير ذلك. (صليبا، 1994، صفحة 36)

[3]– أطروحة صمويل هنتنجتون (1927–2008) Samuel Huntington الموسومة بـ The Clash of Civilizations والتي تُرجمت للعربية بـ "صدام الحضارات"؛ ترجمة مالك عبيد أبو شهيوة و محمود محمد خلف، الدار الجماهيرية، 1999. **وأيضًا**، ترجمة طلعت الشَّايب، دار سطور، نيويورك، 2012. غير أنَّ بعض الباحثين العرب، كثيرا ما استعملوا مفهوم الصراع في مقابل الصدام وكأنهما يحملان المعنى ذاته!

[4]– ينبغي التَّنبيه أنَّ العنوان: The Clash of Civilizations قد طرحه صمويل هنتنجتون، في بادئ الأمر، في مجلّة الشؤون الخارجية، ضمن عدد 1993؛ قبل أن يتحوَّل العنوان إلى كتاب وأطروحة في 1996. أين أصبح العنوان نظرية سياسية ذائعة الصِّيت في تفسير واقع صدام الحضارات في القرن العشرين.

[5]– أبرز من تناول هذه الأطروحة نَجد: أرنولد توينبي (1889–1975) Arnold Toynbee فِي مقالة بعنوان "الصِّدام بين الحضَارات" والتِي نُشِرَت لأول مرة في مجلّة هاربر أفريل 1947؛ وطرحها أيضًا، المُستشرق برنارد لويس (1916–2018) Bernard Lewis طرح فكرة صدام الحضارات، ويَدَّعي أنَّه أوّل من تناول صدام الحضارات في 1957 في كتابه بعنوان "في الإسلام" يقول في مقدّمة كتابه « إنّ التَّوتّر القائم ليس هو صراع بين الدّول إنَّمَا هو صِدام بين الحضارات.»؛ كما طرحها أيضًا المفكر المغربي المهدي المنجرة: في كتابه الحرب الحضارية الأولى وسلّط الضّوء على ما جرى في الخليج والعالم العربي؛ فضلاً عَن صامويل هنتنجتون: S.Huntington في مقال بعنوان "صدام الحضارات" والتي نُشِرت في مجلة الشؤون الخارجية، في 1993 ثم سرعان ما تحول العنوان إلى كتاب في 1996 تاركًا جدلاً واسعًا...، **ينظر**: (راهي قيس، 2017، الصفحات 37–40)

[6]– لَطَالَمَا وُضِعَت نَظَرية و/أو كتاب "نهاية التَّاريخ" جَنبًا إلَى جَنب مع نَظرية و / أو كتاب "صدام الحَضَارات" في عدد لا يُحصَى من الدِّراسات التَّمهيدية للعلاقات الدولية، وكرؤى متباينة للسِّيَاسَة العالمية. والجدير بالذِّكر، أنّ النَّظَرِيتين تركَتا وَقعًا وَجَدَلاً وَاسِعًا فِي الأوسَاطِ الفِكرِيَّة والمَعرفية نَظَرًا لِعُمقهمَا فِي الطَّرح. وفي مُعظم الاعتِبَارَات كَانَ أنموذج "نهاية التَّاريخ"يرى أنَّ العَالَم سَيَشهَدُ نِطَاقًا مُتَزَايِدًا مِن الدِّيمقراطِيَة اللِّيبرالية المُستقرّة؛ بَينَمَا استَقَرَّ أنموذج "صدام الحَضَارَات" بالقول بوجود مناطق متصارعة في العالم وسبب التّصارُع هو الإديولوجيا. **ينظر**: (فوكوياما، 2015، صفحة 151)

[7]– ينبَغي التَّفريق بين: "**النموذج**" الذي هو عبارة عَن المِثال أو الطِّرَاز ومقابله الإنجليزي (Model / Pattern)؛ و"**الأنموذج**" كمنهج محدد ووِجهَة لرؤية العَالَم، ومقابله الإنجليزي Paradigme، وصاحب نَظَرية الأنموذج هو الفيلسوف الأمريكي توماس كون (1922–1996) Thomas Kuhn الذي يعرّفه بأنّه « النّظرية المعتمدة في مجتمع من الباحثين العلميين في عصر ما إضافة إلى الطرق في البحث ومحاولة حلّ المشكلات وفهم الواقع.» **ينظر**: (كون، 1992، صفحة 11)

[8]– تزامنا مع صدور مقال هنتنجتون، تَبَنَّى الإعلام الغَربي مَوقِفًا مِن نَظَرِيَة صِدَام الحَضَارَات، حَيثُ ذَكَرت صَحِيفَة "المُونِد دِيبلوماتيك" فِي مَقالِهَا الذِي نَشَرَتهُ في 1993 بقَلَم مَارِيانُو اجوميه بعنوان: "من هو عَدُو الغَرب...؟" وَفِي إجَابَتِهِ عَن هَذَا التَّسَاؤُل قَال: «الإسلام هو العَدُو الجَدِيد» **ينظر**: (رجاء، 2007، الصفحات 111–112)

[9]– المَقصُودُ بمصطلح "**الحَضارة العالمية**" هو وُجُود تَقَارُب إنسَانِي وقُبُول مُتَزَايِد للقيم والتَّوجيهَات والممارسَات المُشتركة مِن قِبل شعُوب العالم، ويتساءَل هنتنجتون في كتابه "صدام الحضَارَات" بالتَّحديدِ فِي الفَصلِ الثَّالِث، حَول وُجُود حَضَارَة عَالمِيَة وَاحِدَة أم

حَضَارَات مُتَعدِّدَة! وَيُحَاول الإجَابَة عَن هَذَا التَّسَاؤُل بالقَول بِعَدَم وُجُود حَضَارة عَالميَة تَنصَهِر فِيهَا شُعُوب المَعمُورَة، هَذَا مَا يَعنِي أَنَّ العَالَم مُقَسَّم لِحَضَارَات مُختَلِفَة وَمُتَعَدِّدَة الأقطاب. **ينظُر:** (هنتنجتون، 1999، صفحة 93) **وأيضًا:** (راهي قيس، 2017، صفحة 41)

[10]– الفَردَانية في مقابل اللفظ الأجنبي (Individualisme / Individualism) هو اتّجاه يَرَى في الفَرد أَسَاسًا للواقِع والقِيَم، وأَسَاسًا لتفسير الظَّواهِر الاجتماعية والتَّاريخِيَة. **ينظر:** (بليليطة، 2018، صفحة 162)

[11]– طَرَحَت نَظَرية صراع الحضَارَات جَدَلا عَميقًا في الأوسَاط الغَربية والعَربية، مما جعلها محلا للنّقد، كَمَا طُرِحَت العَدِيد مِن المؤلفَات والمُطَارَحَات للردِّ عَلَى فكرة/كتاب صامويل هنتنجتون المعنون بصراع الحَضَارات، ولَعَلَّ أَبرَزَهَا عَلَى الإطلاق كتاب هارد مولر، بعنوان تعايش الثّقافات مشروع مضاد لهنتنجتون، ترجمه إلى العربية إبراهيم أبو هشمش؛ وهناك أطروحَة سبقت فكرة هنتنجتون رَغم أنَّها تُعَدّ مُنَاقضة لها في التَّوجه والغَاية، وهي تلك التي طرحها "روجيه غارودي"، بعنوان: حوار الحَضَارات، ترجمها إلى العربية الدكتور عادل العوا.

[12]– مفكّر عَربي معاصر ولد في المغرب درس في كلية الآداب في الرّباط ثم عمل أستاذا فيها أشرف على تخرّج العديد مِن الأساتذة والمفكرين اهتمّ بالفلسفة والدراسات الإسلامية كما اهتم كثيرا بقضية التّراث الإسلامي العربي. **ينظر:** (ولد اباه، 2010، صفحة 162)

[13]– مفكّر وناقد أدبي، وباحث اجتماعي مصري، اهتم بقضايا الإديولوجيا والعلمانية والصّهيونية له العديد من المؤلفات منها: موسوعة اليهود واليهودية في سبع مجلّدات؛ العلمانية الجزئية والعلمانية الشّاملة. أنظر: (ولد اباه، 2010، صفحة 113)

[14]– بَعدَ مَقال هنتنجتون؛ أصدَر المُستشرق الصّربي "يفتيتش"، مُحاضَرَة بالعنوَانِ ذَاته مُضِيفًا لَهَا المَكَان، بحيث كان العنوان: "صِراع الحَضَارات فِي البلقان" وَقَد بَلوَرَهَا فِي مَفاهِيم خَطيرَة للغَايَة في حَقّ الحَضَارَة الإسلامِيَة، وَيَصِفُ الإسلام بأنّه مرادفٌ للعُنف والقَتل، وَاتَّخَذَ مِن مفهوم التَّقَرُّب إلَى اللهّ ذَريعَة لإدِّعائه، إذ يَرَى أنَّ التَّقَرّب إلى الله بذبح الحيوان، يفصل المسلم بخطوة لذبح الإنسان تَقَرّبًا إلَى الله!

[15]– قد يُستعمل لفظ "الحضارة" بمعنى مُساوٍ لـ "الثَّقافة"؛ وقد يُستعمل لفظ "الحضارة" بمعنى أعم فيكون حوار الثَّقافات جزءًا من حوار الحضارات؛ وقد يُستعمل لفظ "الحضارة" بمعنى أخصّ فيكون حوار الحضارات جزءًا من حوار الثَّقافات؛ وقد يتعدَّى الأمر إذا أخذنا بعين الاعتبار التَّصور الإسلامي للدِّين، والذِي يجعل من الدّين نِظامًا يَشمل جميع جوانب الحياة الإنسانية، فيكون حينئذ مدلول حوار الحضارات مُرادفًا لمدلول حوار الأديان. **ينظر:** (طه، 2014، صفحة 181)

[16]– تُعدّ أحداث 11 سبتمبر 2001 الحَدث الذِي أَصَاب العالم بهزّة عنيفة غيّرت صُورة العالم وقلبت موازينه ومعادلاته هَذا الحَدث الذِي خَلّفَ حالات انفعال وقلق وتوتّر سيطرت عليه مفاهيم الحرب، الإرهاب، القوة، وأصبح الإنسان يعيش حياة القلق والخوف. **ينظر:** (الميلاد، 2014، صفحة 72)

[17]– في مقابل اللفظ الأجنبي World–View القائم على حاصل التّركيب الإضافي من كلمتين هما: World بمعنى العالم؛ و View بمعنى رؤية، تصوُّر، وأصل المصطلح هو ترجمة للكلمة الألمانية Weltanschauug. واستعمل مصطلح الرؤية إلى العالم على نطاق واسع في دراسات فلسفة العلوم، وكان المصطلح يرتبط ارتباطًا وثيقًا بفهم الإنسان لبنية الكون المادي وعلاقة مكوناته ببعضها، وموقع الإنسان فيه. وكل رؤية إلى العالم تتضمّن تفسيرات للحقائق المتعلقة بالكون الطبيعي، وينبثق عنها تفسيرات حول موقع الإنسان في الكون وطبيعة معتقداته. **ينظر:** (ملكاوي، 2021، الصفحات 51–52–54)

[18]– فيلسوف فرنسي ماركسي ولد سنة 1914 تَعَلّم بباريس وَحَصل على الدكتوراه في الفلسفة وانتُخب عضوًا في الحزب الشّيوعي سنة 1933 ثمّ عضوًا في المكتب السّياسي، له العديد ممن المُؤلفات نذكر منها: الماركسية والإنسان؛ وُعود الإسلام؛ مشروع أمل؛ محاكمة الصّهيونية الإسرائيلية... أعلن إسلامه سنة 1982 يُشتَهَر عَادَة بِنَظَرِيّة "حوار الحَضَارات". **ينظر:** (حنفي، 1999، صفحة 644)

[19]– ما جعلنَا نقف عند هذا الرّأي بخصوص نظريّة حوار الحَضَارات هو التَّجربة الفكرية التِي مَرّ بهَا غارودي! وتلكَ الانتقالات التِي عاشهَا الفيلسوف مُرتحلاً من المسيحية إلى الماركسية ثم اعتناقه الإسلام لذِلكَ لم يَكن غارودي مُجرّد داعٍ لفكرة الحوار بقدر ما كان مثالا تطبيقيا لهذه الدّعوة الإنسانية والتِي تُعَبِّر عَن غاية نبيلة وإنسَانِية.